أحيا وطنًا .. من أحيا أرضًا !

حواريّة لبنانية من عهد فخر الدين المعنيّ

تقديم رئيف خوري

الفصل الأول

الاشخاص : ابو عامر (فلاح) ، وزوجته أم عامر ، وابنهما عامر
الامير فخر الدين (متنكراً) ومعه مرافق .
المكان : منحدر جبل على كتف واد في لبنان .
الوقت : صباح مشمس بعد عاصفة ، ومطر غزير .
ابو عامر وزوجته وابنه ، قد جلس كل منهم على حجر ومعه سلة .

●

عامر (يسند بكفه خده ويغني) :

يارب يطوف النهر تَيحمل الوادي
وتأعمل زنودي جسر وبقطّعك لَيّا!

ابو عامر (بعصبيّة) : أف ! اما تعبت يا عامر من التشدّق بهذا الموال ، صبحاً ومساءً ، في البيت وفي الحقل . فهمنا انك واقع في الغرام .

ام عامر : والوقت مناسب جداً لموالك يا ابني . الله يعافيك. الذي طلبته تمّ . طاف النهر ولا طوفان نوح. فأين هي المنكودة الحظ التي تريدك ان تعمل لها زنودك جسراً لتتناولها من فوق الوادي ؟

عامر : وماذا أصنع إن لم أغنّ ؟ ابكي ؟ والشمس مشرقة بعد اسبوع من عواصف وامطار ورعود وبروق ...

ابو عامر : وقد خربت بيوتنا هذه العواصف والامطار ؟ انظر .. اين القمح الذي زرعناه فنبت اخضر يبهج العين والقلب ويبشر بموسم عظيم ؟ المياه قلعته وقذفته الى الوادي ، ثم قذفه النهر الى البحر .

ام عامر (تتنهد وتضرب كفاً بكف) : بأيّ شيء نتقوّت هذه السنة ، بأي شيء ؟ اليوم نجمع « البزّاق » في هذه السلال. وغداً نجمع « القرصعني » . وبعد غد نبيع كل ما فوقنا وتحتنا.

عامر (يسند خده بكفه ويعود الى موّاله) :

يا ربّ يطوف النهر ...

ابو عامر (مقاطعاً) : ويحك ! ألا تستحي ؟

أم عامر : ولكن تسمّعا .. اصداء طنطنة وخشخشة تصعد الينا من الوادي . أظن ان راكباً يقبل علينا . وأسمع كذلك وقع حوافر .

(يقفون جميعاً ويتطلعون)

عامر : هما راكبان لا راكب واحد ، على البغال. وأرى انهما قد تعبا من الركوب وتمشية البغال في هذه الارض الجبلية الموعرة .

ام عامر : وهما غريبان عن هذه الناحيـــة . وأظن انهما يتجادلان في شيء جدالاً حامياً لكثرة ما يلوّحان بالأيدي

ابو عامر : تُرى من هما ؟ وماذا يفعلان هنا ؟

عامر : لقد نزلا عن البغال وربطاها وأقبلا علينا .

ابو عامر : خير ان شاء الله . لننتظر .

(عامر يلقي خده على كفه : تراه ام عامر)

ام عامر : ألا يمكنك تأجيل هذا الموّال قليلاً ؟

عامر : لا انوي ان اغني ! ولكني افكر في هـذا الخراب الذي اصابنا وأصاب الجيران .

ابو عامر : حسناً تفعـــل إذا فكرت . موّالك ، يا ابني يعجب المليحة التي تهواها . ولكن المواويل وحدهـا لا تكفي للزواج .

(يصل الغريبان .. شاب .. وشيخ بلحية ، قصير القامة ، تبدو عليه علائم النشاط والعزم)

الشيخ : عوافي ، يا أجاويد .

ابو عامر : عوافي (يتفرس فيهما طويلاً)

الشيخ : سمعنا من طُوبكم ونحن في الوادي غناء حلواً ، وأظن الفتى (ملتفتاً الى عامر) هو الذي كان يغني. أهو ابنك؟

ابو عامر : ومن يكون حضرة الشيخ ورفيقه ؟

الشيخ : لبنانيان من ابناء هذه الجيرة . خرجنا للتنزّه في هذا الصباح الصاحي البديع .

ام عامر : الله يهنيـــكم بعيشتكم . يظهر ان لا همّ لـكم

على القلب .

الشيخ : وانتم ما الهمّ على قلبكم ؟

ام عامر : فلاحون وتسأل ما الهمّ على قلبنا ؟

ابو عامر : الطبيعة ، امّ الرحمة ، قست علينا هذه السنة قسوة فظيعة .

الشيخ (لرفيقه الشاب) : نقعد هنا قليلاً ونشعل الشُبُق . حديث الاجاويد اعجبني . ولعلنا نسمع موالاً من الفتى .

(يقعد الجميع)

الشيخ (لأبي عامر) : أتشرب التبغ ؟ (ويخرج كيساً وشُبُقاً طويلاً)

أبو عامر : أشرب إذا تيسر لي .

الشيخ : حسناً . ستشاركني في هذا الشبق . (يخرج التبغ من الكيس ويحشو الشبق) ثم تقول لابنك ان يغني لنا موالاً .

ابو عامر : يا شيخ ، يحتاج الغناء الى بال مطمئن . وحتى هذا الفتى مشغول البال . يريد ان يتزوج . ولكنه لن يستطيع هذه السنة ، لان الامطار الهائلة أتلفت مزروعات القمح . هل تصدق ان هذه البقعة كانت كلها مزروعة قمحاً ، فقلعته الامطار وحملته الى الوادي ثم حمله النهر الى البحر .

الشيخ (وقد ظهر عليه الغم) : لقد لحظت ذلك . (ويقتدح ناراً) بصوانة وحديدة ويشعل فتيلاً يقرّبه من الشبق ، تنعقد فوقه سحابة من دخان)

ام عامر : العواصف والامطار خربت بيوت الفلاحين هذه السنة .

ابو عامر : ولو كنت فلاحاً يا شيخ للحظت ان الضرر اشد واعظم من تلف موسم قمح لسنة واحدة .

الشيخ (مقدماً الشبق لابي عامر) : خذ لك مجة .. مَن قال لك اني غير فلاح ؟

ابو عامر (يتناول الشبق) قرّب يديك من يدي فتعرف انك غير فلاح .

الشيخ (مبتسماً) : فحدثني إذاً اي ضرر اشد واعظم من تلف موسم القمح هذه السنة .

ابو عامر (وهو ينفث الدخان) : جرب ان تغمس اصبعك في هذه الارض التي غُرّقت تغريقاً بالمياه . هل تستطيع ؟ (ويغمس ابو عامر اصبعه في الارض فلا تنغمس) ولماذا ؟ لأن الامطار قد جرفت التراب ايضاً الى الوادي ثم الى البحر ، فلم تبق للأرض إلا قشرة رقيقة جداً لا تصلح للزراعة . وما دمت من ابناء هذه الجيرة فحدثني هل وقع الضرر نفسه بارضكم هناك ؟

الشيخ (مغتماً) : نعم يا صاحبي . فما العمل ؟

ابو عامر (متفرساً فيه) : وانت ما رأيك اننا نستطيع ان نعمل ؟

الشيخ : اجتمعتم انتم الفلاحين لبحث هذه المشكلة ؟

ابو عامر : لا حديث لنا إلا هذه المشكلة بالذات .

الشيخ : وهل وصلتم الى نتيجة ؟

ابو عامر : نعتب على الطبيعة ونرجو رحمة الرب .

الشيخ (مبتسماً) : رحمة الرب لازمة . ولكن ما معنى العتب على الطبيعة ؟ هل شكوتم مصيبتكم الى الامير فخر الدين ؟ انه قريب في الجوار .

ابو عامر : وماذا يصنع لنا فخر الدين ، وكل همه ان يستوفي منا الضريبة ! ؟

الشيخ : أو هذا رأيك فيه ؟ ناولني الشبق !

***

الفصل الثاني

الاشخاص : فخر الدين متكئا يدخن الشبق ، جماعة من حاشية الامير بينهم مرافقه الشاب ، عدد من الفلاحين بينهم ابو عامر . الموضع والوقت : مشتى لفخر الدين ، بعد الظهر .

●

رجل اول من حاشية الامير : لعل نزهة مولانا الامير كانت اليوم طيبة ممتعة .

مرافق فخر الدين : بل تعب مولانا حفظه الله ، لقد ركب البغل ساعتين في ارض جبلية موعرة .

فخر الدين : أتظن هذا ما أتعبني ؟ لقد قطعت مسافة اطول وفي طريق اوعر .. مسافة ستين سنة من العمر لم تكن مفروشة بالورود .

رجل ثان من الحاشية : ثم حقق الله الآمال . انتصرت على اعدائك في الداخل ، وهزمت باشوات دمشق وعملاء السلطان وبنيت للبنان وحدة واستقلالاً وجيشاً متيناً عزيزاً . فاسترح على أكاليل الغار .

فخر الدين : ليس للحاكم الصحيح ان يستريح . وما اصعب ان يكون الحاكم محبوباً . والانتصار في معركة لا يغني عن الانتصار في معارك . اقول لكم : ينبغي لنا ان نحارب وننتصر على اكثر من جبهة . هذا ما تيقنت به بعد نزهة اليوم ان كنت للنزهة خرجت .

رجل ثالث من الحاشية : نحن فدى الامير ! هل شغل باله امر ؟

فخر الدين : نعم .. هذه العواصف والامطار. لقد خرّبت الارزاق . لقيت اليوم فلاحاً وامرأته وابنه صب الشتا سيولاً على مزروعات قمحهم ، فقلعها الى الوادي وجرف معها تراب الارض الى البحر .

رجل رابع : لا يتكدر خاطر الامير لمثل هذه القضية البسيطة !

فخر الدين (جاداً) : قضية تتعلق بمعيشة الشعب لا يمكن ان تكون بسيطة . وقضية تتعلق بحفظ التربة — تربة الوطن — لكي لاتجرفها السيول الى البحر قضية خطيرة جداً ، الارض عزيزة في لبنان ككحل العين . وهي اساس مواردنا الحيوية ، التي نستقل بها استقلالاً صحيحاً ، والاستقلال أقصى غايتنا (ثم بعد صمت) من منكم يستطيع ان يرشدنا الى طريقة نحفظ بها الارض على منحدرات الجبال فلا تجرفها سيول المطر ؟

رجل خامس : ولكن الشتاء لن يكون في كل سنة بهذه الغزارة والقوة .

فخر الدين : ولماذا نتكل على رحمة الطبيعة ؟ ان الطبيعة ليست دائماً عاقلة متزنة .

(يظهر احد الحجاب بالباب)

الحاجب : مولاي الامير ، خارجَ المخيم جماعة من الفلاحين يلتمسون شرف المثول بين يديه .

(يبش فخر الدين وتبدو عليه علائم الارتياح)

مرافق فخر الدين : يظهر يامولاي ان الفلاح الذي أشرت عليه هذا الصباح ان يستنجد بفخر الدين قد عمل بالنصيحة .

فخر الدين : نعم ! ولذلك سررت ! انه لم يكن جاداً حين زعم ان كل همي جمع الضرائب . (للحاجب) قل للفلاحين يدخلوا جميعاً .

رجل سادس من الحاشية : مولانا الامير قد تعب اليوم تعباً مرهقاً . فلو استغنى عن هذا الجهد الذي لا داعي له ، يأمر الفلاحين بالانصراف ويضع عنهم الضريبة كما وضعها عن فلاحي بيسان في سنة المحل .

فخر الدين (منفعلاً) : ما هذا الحرص على راحتي وصحتي ؟ وما هذا التملق والتبجيل ؟ صدقوا ان فخر الدين ليس اميراً بالمعنى الذي تفهمون . وأمقت شيء عنده بطانة من المداجين المتملقين . انا لم أرد استقبال الفلاحين لمجرد العطف عليهم بل للانتفاع بخبرتهم . هل خطر لواحد منكم ان هؤلاء لا يعيشون العمر عبثاً وسدى ؟

(يعود الحاجب فيقف الى جانب من الباب . يدخل الفلاحون مسلمين وفي طليعتهم ابو عامر . ويكون بينهم عامر ايضاً) .

ابو عامر (مبغوتاً) وإذاً فقد كنت في الصباح أكلم مولانا الامير بالذات (ثم لنفسه) ويحك يا بو عامر ، الله ينجيك من الكرباج . .

فخر الدين (مبتسماً) : لا يا صاحبي ، لا تضطرب ، سوف أغير رأيك في فخر الدين ، دون ان استعمل الكرباج . (للفلاحين) اجلسوا ، هاتوا حديثكم . (يجلس الفلاحون)

ابو عامر : أطال الله عمر مولانا ، وأي حديث لنا سوى حديث هذا الشتاء القاسي الذي أتلف مواسمنا وجرف تراب الارض عن صدور الجبال الى البحر ؟ نسألكم ان ترفعوا الضريبة هذه السنة ، وعمّر الله الخزينة !

فخر الدين : لا تعمر الخزينة إلا بكم ، فعمران بيوتكم وعمران أرضكم قبل عمران الخزينة . لا أريد نبش اساس البيت لتجميل السطح .

احد الفلاحين : عشت ايها الامير . فهل نفهم ان الضريبة سقطت عنا هذه السنة ؟

فخر الدين : نعم ، ولكن إسقاط الضريبة لا يمكن ان يكون حلاً دائماً لمشكلتنا . الخزينة لا بد لها من تغذية . وانتم لا بد لكم من إنتاج الرزق . وهذا يوجب علينا خطة إصلاح في الزراعة نتعاون عليها جميعاً .

ابو عامر : ونرجو ان يكون اول بند في الاصلاح الزراعي حفظ هذا التراب العزيز الغالي من ان يجرفه الشتاء الى البحر ، أيها الامير ، لقد شهدت بعينك أي تخريب فعلته يد الشتاء في أرضنا .

فخر الدين : نعم رأيت ذلك . ولكني سألتك : ما العمل ؟ فسألتني أنت : ما العمل ؟ هل خطر لك او لاحد من اصحابك رأي في هذا الشأن ؟

ابو عامر : بيننا يا مولاي رجل نسميه المهندس . إلا انه لا يرسم الخطط لينفذها البشر بل الجان . ولديه الآن خطة إذا أمرته ان يطلعك عليها فعل .

(الفلاحون جميعاً يبتسمون)

فخر الدين (مبتسماً): ومن يكون هذا المهندس العجيب ؟

(يشير ابو عامر الى فلاح ضخم قبع في زاوية من القاعة ويقول)

ابو عامر : قم يا مسعود فحدث مولانا الامير بهذه الخطة التي ابتكرتها لحضن التراب على صدور جبالنا .

مسعود : الخطة بسيطة جداً ؛ استوحيتها من درجات السلم . نرسم على صدر كل جبل خطوطاً بالعرض . ثم نبني بموجب الخطوط حيطاً أوحفافي من الصخر يستند اليها التراب. والصخر عندنا كثير ؛ فينبغي ان يكون لنا فيه منفعة . ثم فلينزل المطر شلالات من قرب ربنا .

(تعلو من بعض الفلاحين ضحكات مكبوتة)

فخر الدين : أعلم لماذا تضحكون . إنكم ترون في هذه الخطة احلام رجل اقرب الى التهوس منه الى التعقل . ولكن يلزمنا ان نقمص الاحلام في حقائق ، وإلا لم نستطع ان نثب وثباً الى التقدم .

مسعود : واظن ان جذور الشجر إذا عمقت في التربة أمسكتها . فلماذا لا نكسو صدور جبالنا بالاشجار . أواه ! لو كانت لي عزيمة وهمة بمقدار ما في رأسي من مشاريع ضخمة . ولكني مع الاسف قليل المروة ضعيف النخوة .

(يضحك فخر الدين واهل المجلس)

فخر الدين : شكراً على ما اقترحت يا صاحبي ، آمل ان نستطيع يوماً تنفيذه ..

(ثم يخاطب اهل المجلس)

ان حاجتنا شديدة الى المهندسين . ولذلك لا اكتمكم انني منذ عودتي من توسكانة قد كتبت الى القوم هناك ان يبعثوا الينا ببعض مهندسين واطباء وفنانين . والتمست « المدام كريستينا » والدة امير توسكانة ، ان تهتم بنفسها للأمر ، اهتماماً جدياً ووجهت اليها الهدايا الثمينة . غير انني لم اتسلم منها جواباً حتى اليوم . وربما كانت وفاة ولدها الامير قوزما قد عوّقتها عن تلبية الطلب .

رجل من حاشية الامير : او لعلها عجزت عن دفع نفقات هؤلاء المهندسين والاطباء والفنانين يا مولاي .

فخر الدين (يظهر في وجهه الغيظ) : وهل يخطر لك اننا طلبنا هؤلاء جميعاً على غير نفقتنا ؟ يجب ان نفيد من خبرة الاجانب ، ولكن يجب ان لا نترك لهم ديناً علينا . نحن في سبيل اصلاح بعض البلاد لا نبيع البلاد !

***

الفصل الثالث

الاشخاص : حلقة من العمال والفلاحين واللبنانيين بينهم عامر ومسعود ، جولو باريجي (مهندس توسكاني) ، فرنسيسكو فايني (رئيس بنائين) وكلاهما واقف الى ناحية .

فخر الدين يتفقد الورشة وعمالها .

الوقت : فترة استراحة الظهر ؛ والمنظر هو منظر الفصل الاول نفسه ، يضاف اليه مشهد ورشة ، زنابيل ومناول وحجارة .

●

فخر الدين : باركَ الله في همة الشباب ، ارى الاعمال بدأت على اسرع ما يرام ، وخير ما يرام .. من يصدق اننا كنا نحلم بمثل هذه الورشة امس ، ونتحدث عن تأخر المهندسين من توسكانة ؛ فاذا بالمهندسين يصلون امس ليلاً وإذا بنا نبدأ الاعمال اليوم ! بسواعدكم يا شباب سنجعل من صدر هذا الجبل جنة من جنان الله !

(ثم لمسعود وهو يربت على كتفه) كيف تقول انك قليل المروّة ، وقد رأيتك تضرب بمعولك ضرباً يجاوبه قلب الارض.

مسعود : إني احفر اساساً لحائط من هذه الحيطان التي نحتضن بها تراب لبنان ، فلا تغسله سواقي المطر . ولذلك تراني متحمساً جداً ايها الامير .

فخر الدين : عشت ، عشت يا مسعود . من أحيا ارضاً أحيا وطناً ! وبمثل ساعدك ، وبمثل هذا الحائط ، بقاء للبنان فلا ينجرف الى البحر .

(ثم لعامر) وكيف حال صاحب الزنود التي يريد ان يجعلها جسراً ليحمل عليها حبيبته فوق طوفان الوادي ؟

عامر (خجلاً) : بخير ايها الامير .

فخر الدين : اما زلت تغني الموال ؟

ابو عامر : سيظل يغنيه حتى تصبح العروس بين يديه.

فخر الدين : وستصبح بين يديه ان شاء الله ! فليتزوج وله مني هدية . ان شعبنا له الحق ان يسعد بالحياة . (ثم لعامر) ولكنك لن تبخل علينا بانشاد هذا الموّال ، كما فعلت !

عامر (وقد ازداد خجلاً) متى شاء الامير غنيته !

فخر الدين : يجب ان تغني وانت تعمل. الغناء يطيّب العمل.

(يلحظ فخر الدين ان فلاحين يتهامسان بشيء)

فخر الدين : هل لكما قول تريدان ان اسمعه ؟ لا تخافا

ولا تخجلا .

احدهما : كنا نفكر في مصير هذه الارض بعد ما نصلحها .

فخر الدين : كنتما تتساءلان : لمن هذه الارض ؟ من يملكها؟ وانتما تخشيان ان يملكها فخر الدين لنفسه بعد ما يسخر اللبنانيين في اصلاحها ! مرة اخرى اقول : ما اصعب ان يكون الانسان حاكماً محبوباً ، يوحي الثقـــة . كلا يا صاحبي ! فخر الدين لن يملك لنفسه من الارض إلا قيد قامتـه . (ثم يخاطب الجميع) الارض كلها للبنان . اريد اولاً ان يصبح للبنان إنتـاج عظيم من ارضه وجهود ابنائه ، فالانتاج العظـيم هو الشرط الاول لعدالة القسمة ولمعنى العدالة في القسمة . وقبل توفير هذا الانتاج العظيم لن نستطيع كفاية مصالح الوطن ، ولذلك أعلّمكم التضحية مع العدالة ، وآخذ بها نفسي قبلكم .

وبعد فكيف رأيتم ضيوفنا من توسكانة؟ يقال انهم ماهرون بارعون . سنرى ، لكن الذي اعجبني منهم استعدادهم للتضحية . لقد قبلوا ان يبدأوا العمل فوراً . فأوصيكم باكرامهم ، وبأن تتعلمـــوا منهم سريعاً ، اذ ينبغي لنا الاستغنـــاء عنهم في اقصر وقت .

ولقد قلت لهم ساعة استقبلتهم كلاماً اريدكم ان تسمعوه وتحفظوه . قلت لهم : انكم تنزلون بلداً يريد ان يبني نفسه حراً مستقلاً موحّداً . ويريد ان يقيم الأسس لهذا الاستقلال والحرية والوحدة على الاصلاح ، ومنه اصلاح الارض . وليس هـــذا البلد بعاقّ ولا منكر للجميل . انتم ضيوفه منذ ان تحركتم من بلادكم حتى تعودوا . ولكم اجوركم والكرامة . فاخدمونا باخلاص ، وارعوا حرمتنا نرع حرمتكم . فبذلك تستقيم صداقة حقيقية بيننا وبينكم على قاعدة المساواة ، فلا نحن مدينون لكم ولا انتم مدينون لنا إلا بما يكون بين الصديق الصحيح وصديقه من دَين معنوي . (هنيهة صمت)

هذا ما قلته لضيوفنا من توسكانة ، والآن هيّا الى العمل يا بَنيّ .

(ينصرف فخر الدين الى المهندسين التوسكانيين . ينهض الجميع لاستئناف العمل

وفيما ينزل الستار ، يرتفع صوت عامر :

يا رب يطوف النهر ...

ويتموّج صداه حتى يغيب)

— ستـــار —

رئيف خوري

لجنة التأليف المدرسي

تقدم الى المدارس المجددة اصلح الكتب وادقها انطباقاً على نظريات التربية الحديثة . صدر عنها :

المروج : سلسلة كتب حديثة في القراءة العربية

الجزء الأول ١٠٠ ق.ل	الجزء الرابع ٢٠٠ ق.ل
« الثاني ١٥٠ «	« الخامس ٢٢٥ «
« الثالث ١٧٥ «	« السادس ٢٥٠ «

يلحق بهذه السلسلة كتاب « المروج الملونة » وقد أعد خصيصاً لحدائق الأطفال وثمنه ٧٥ قرشاً

الجديد في دروس الأشياء : سلسلة كتب حديثة في العلوم

الجزء الاول ١٠٠	الجزء الثالث ١٧٥
« الثاني ١٥٠	« الرابع ٢٠٠

كيف اكتب : سلسلة حديثة في الانشاء العربي

الجزء الأول ١٠٠	الجزء الثالث ١٧٥
« الثاني ١٥٠	« الرابع ٢٠٠

الجديد في دروس الحساب : سلسلة كتب حديثة في الرياضيات

الجزء الأول ١٢٥	الجزء الرابع ٣٠٠
« الثاني ١٧٥	« الخامس ٣٥٠
« الثالث ٢٢٥	

الجديد في قواعد اللغة العربية : سلسلة كتب حديثة في القواعد

الجزء الأول ١٠٠	الجزء الثالث ٢٠٠
الثاني ١٥٠	« الرابع ٢٥٠

تطلب هذه الكتب من :

مكتبة انطوان ، مكتبة بيروت ، دار العلم للملايين ، دار المكشوف ، مكتبة لبنان ، ومن سائر المكتبات في لبنان